# التصوف حقائق ومفاهيم

الأستاذ ماحي قندوز

**المقدمة:**

لم يعرف مفهوم إسلامي أخذا وردا وجدالا طويلا، كما عرفه مفهوم التصوف، فوقف الناس فيه على مذاهب ما بين متعصب وجاحد ومتستر، وبين مكفر ومبدع من كلا الاتجاهات سواء من اقتنع بالتصوف كحياة وسلوك، أو من خاض فيه كفلسفة وبحث ميتافيزيقي دون أن يكون له ثمرة في حياته والتزامه وعبادته.

والقسطاس المستقيم والصراط القويم، جعل هذه القضية في محك البحث العلمي، وعرض مفهوم التصوف، وأنواعه وتطوره ومن تمسك به ومن أنكره ومن توسط، وخير الأمور أوساطها.

لقد التفت الكثير من الباحثين المعاصرين إلى قضية التصوف، فتعاملوا معها على عدة مستويات:

الأول: أن الحضارة الحديثة تربط الإنسان بالأرض وتقطعه عن السماء، وتعلق قلبه بمآرب الدنيا، وتذهله عن مطالب الآخرة، وهي بذلك تسير بالإنسان في اتجاه معاكس للدين.

الثاني: أرباب الدعوة إلى وحدة الأديان يجدون في التصوف بغيتهم، فيدخلون منه إلى تحقيق هدفهم؛ بدعوى أن القدرة المطلقة المسيطرة على الكون متحدة بين المسلم والنصراني واليهودي والبوذي وعابد البقر والشجر والحجر...تعددت المسميات والجوهر المعبود واحد.

الثالث: الحرب العالمية على الإسلام وأهله وجدت في التصوف المنحرف غرضا وأداة للسيطرة على أراضي المسلمين ومقدراتهم وعقولهم؛ صدق فيهم قول بعض الطرقية لما احتلت فرنسا بلاد الجزائر: فرنسا بلاء ولو شاء الله لرفعه؛ فلا نستغرب بعدها انتماء كثير من غير المسلمين إلى بعض الطرق الصوفية؛ كنابليون بونبارت.

**شرف التصوف:**

قال زروق الفاسي:"لا أشرف من متعلق علم التصوف؛ لأن مبدأه خشية الله التي هي نتيجة معرفته، ومقدمة اتباع أمره، وغايته إفراد القلب له تعالى، فلذلك قال الجنيد رضي الله عنه: لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه "[(1)].

قال الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني:"فعلم التصوف هو سيد العلوم ورئيسها، ولباب الشريعة وأساسها، وكيف لا وهو تفسير لمقام الإحسان، الذي هو مقام الشهود والعيان، كما أن علم الكلام تفسير لمقام الإيمان، وعلم الفقه تفسير لمقام الإسلام، وقد اشتمل حديث جبريل عليه السلام على تفسير الجميع.

فإذا تقرر أنه أفضل العلوم تبين أن الاشتغال به أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى؛ لكونه سببا للمعرفة الخاصة التي هي معرفة العيان، وقد اشتمل على حقائق غريبة، وعبارات دقيقة، اصطلح القوم على استعمالها"[2].

وقال أبو القاسم النصرباذي:"أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلائق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص والتأويلات"[3].

**اشتقاق التصوف ومنشؤه:**

كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف؛ وأقرب ذلك للحقيقة خمسة:

1. قول من قال: من الصوفة؛ لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.
2. أنه من صوفة القفا للينها؛ فالصوفي هين لين مثلها.
3. أنه من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة.
4. أنه من الصفاء؛ وصحح هذا القول أبو الفتح البستي؛ حيث قال:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ واخْتَلَفُوا وظَنَّهُ البَعْضُ مُشْتَقاً مِنَ الصُّوفِ

ولَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الاسْمَ غَيْرَ فَتَى صَفَا فصُوفِيَ حَتّى سُمِّيَ الصُّوفِي

5. أنَّه مشتق من الصُفَّةِ؛ لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف، حيث قالتعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ والعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[4]

يقول أبو القاسم القشيري:"اعلَمُوا يرحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم، سوى صحبة رسول الله ﷺ؛ إذ لا فضيلة فوقها؛ فقيل لهم: الصحابة؛ ولما أدركهم أهل العصر الثاني من صحب الصحابة: التابعون، رأوا في ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين؛ ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد؛ ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق؛ فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا؛ فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف؛ واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"[5].

**تعريف التصوف إصطلاحا:**

كثرت تعاريف التصوف حتى وصلت إلى الألفين؛ كما قال زروق الفاسي، مرجعها لصدق التوجه إلى الله[6].

قال ابن عجيبة:"التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، أو غيبة الخلق في شهود الحق، أو مع الرجوع إلى الأثر؛ فأوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة"[7].

قال أبو إسحاق الشاطبي:"حاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان: أحدهما: التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق دني، والآخر أنه الفناء عن نفسه، والبقاء لربه"[8].

**الاتجاهات في التصوف:**

الاتجاه الأول: والتصوف الإسلامي، أو علم السلوك، أو علم القلوب أو علم مقامات الإحسان، أو الزهد والرقائق أو علم الأخلاق....تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج أمراض القلوب، وغرس للفضائل، واقتلاع للرذائل، وقمع للشهوات، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات.

كما هو مجاهدة للنفوس ونزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات وهواجس الخطرات، وانقطاع عما يعوق السالك في سيره إلى الله.

فهذا الاتجاه في التصوف هو توجه سليم لا ينفصل عنه أي عابد أو مسلم؛ لأنه محتاج في كل لحظة إلى مراقبة الله وخشيته والانتباه إلى خطراته وخلجاته؛ وهو الاتجاه الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة وبين الاعتقاد والعمل وبين الخلق الرفيع والعمل الصالح، وهو الذي يحكم العقل والوجدان ولا يقتل العقل في سبيل طغيان العاطفة والخيال.

وهذا الاتجاه هو الذي عناه القرآن الكريم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[يونس 62 64]

و هو معنى قول الجنيد:"من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسولﷺ"[9].

وقال أيضا:"علمنا مقيد بأصول الكتاب والسنة"[10]

وقال الشيخ أبو عبد الله السنوسي التلمساني:"وقد أجمع أهل الظاهر والباطن أن الشريعة بلا حقيقة زندقة ، وكذلك الحقيقة بلا شريعة زندقة أيضا، والعلم في صدور العلماء بالله علم ونور وحكمة، وفي صدور غير العلماء تزويق وتشديق وظلمة ، وأصحابنا أهل علم الظاهر أخذوا بظاهر الشرع دون اشتباه ، فاغتر بهم كثير من أهل اليقظة والانتباه ، فوقع الفساد من وجه الصلاح ، وأتى الخسران من حيث الفلاح"[11].

وقد اختص هذا النوع من العلم الشرعي في عصر التدوين باسم التصوف أو علم الحقيقة[12].

هذا هو التصوف النقي الذي لم يخالطه زيغ ولا شطط، ولا جهل ولا ابتداع، وتصوف العلماء والنساك العارفين بالله القائمين على حدوده المتمسكين بشريعته؛ أمثال أبي سعيد البصري ت116هـ، وأبي سليمان داود بن نصير الطائي ت165هـ، والفضيل بن عياض الخرساني ت 178هـ...إلخ[13].

يقول الشاطبي في هذا الصدد:"إن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة، وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، وممن يؤخذ عنه الدين أصولا وفروعا"[14].

الاتجاه الثاني: التصوف المنتحل المبتدع؛ هذا الضرب من التصوف انتحله طائفة من الناس أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، ولبسوا خرقة الصوفية اجتذابا للعامة، وتغريرا وخداعا وتلبيسا؛ ودسوا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالا للمسلمين؛ وهؤلاء ليسوا من الصوفية ولا من التصوف في شيء؛ ويجسده التصوف الفلسفي كما سماه بعضهم.

ومن هذا الاتجاه دخلت عقائد باطلة ومبادئ إلحادية وزندقة؛ وانتشرت الخرافات والشعوذة؛ وزعم بعضهم أن القرآن والسنة علم أوراق وظواهر، وتارة زعموا أن أورادهم وأذكارهم تفضل ما في القرآن والسنة آلاف بل عشرات الآلاف من المرات، وابتدعوا وحدة الوجود؛ التي تنادى بأن الوجود كله وحدة واحدة، لا خالق ولا مخلوق؛ واعتقدوا بالحلول والاتحاد وغيرها من العقائد الباطنية مما يقرب من الكفر أو يوشك[15].

قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي:"وهم كانوا أهل الحقائق والمواجيد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم، بل يأتي ببدع محدثات، وأهواء متبعات وينسبها إليهم تأويلا عليهم من قول محتمل، أو فعل من قضايا الأحوال أو استمساكا بمصلحة شهد الشرع بإلغائها أو ما أشبه ذلك، فكثيرا ما ترى المتأخرين ممن يشتبه بهم يرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعا، ويحتج بحكايات هي قضايا أحوال، إن صحت لم يكن فيها حجة لوجوه عدة، ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو أوضح في الحق الصريح والإتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها"[16].

وقد ذكر الشيخ زروق الفاسي ست طوائف من الصوفية تدعي التصوف:

أ. طائفة تدعي الفناء وأنها سلبت الاختيار فهي تفعل المحرمات والمعاصي.
ب. طائفة ادعت أنها ترى رجال الغيب من الخضر وأمثاله.
ج. طائفة ظهرت بالجذب وتصرف المجانين.

د. طائفة على عكس من الطائفة السابقة لا يرون المجاذيب شيئا.

ه. طائفة تدعي المراتب وتتجاسر عليها، كفلان قطب وفلان بدل.

و. فئة مشتغلة بعلم الكنوز والكهانة والخواتم والعزائم والطلاسم[17].

إلا أن الحكم على عقائد الناس وإيمانهم يحتاج إلى تحقيق وتدقيق وعناية فائقة؛ خاصة إذا كان الأمر متعلقا بإشارات الصوفية ودقائق علومهم ومعارفهم لاسيما وأن كثيرا من الأقوال كانت تصدر منهم كانت من غير وعي أو كما يسميها الصوفية مواجيد وأحوال؛ وإليك نصوص العلماء الحذاق في تقرير هذه المسألة:

يقول عبد الرحمن بن خلدون:"وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون بها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم اهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور؛ فمن علم منه فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله، وأن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمواخذ بما صدر عنه من ذلك، إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه؛ وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه، ولم يملكه الحال فمواخذ أيضا؛ ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك حاله... "[18].

والإمام أبو عبد السنوسي التلمساني رحمه الله يدافع بشدة عن الفقراء والصوفية خاصة في رده على أبي الحسن الصغير ؛ ويلتمس لهم المعاذير وحسن الظن.

"وعزا بعض أصحاب المقالات إلى بعض الصوفية القول بالاتحاد ، وربما أخذوا ذلك من شطحات تنقل عن بعضهم ؛ كقولهم: ما في الجُبَّةِ إلا الله ، وأنا الحق ونحو ذلك ، وبعض علماء الطريق يتأول لهم وينزههم عن القول بمثل هذه المقالة ، ويقول: إن السالك ربما طرأت عليه حالة لا يشاهد فيها غير الله تعالى ، فتغيب نفسه عنه ، فضلا عن غيرها ، ويعبرون عن هذه الحالة بالفناء، فيفتح على لسانه مثل هذه الألفاظ ، وهي حالة سكر وغلبة ، وإذا رجع إلى صحوه وإحساس نفسه لم يصدر منه شيء من ذلك ويعذرون بذلك ، ومنهم من واخذهم بذلك وحكم بالقتل ؛ كفتوى الجنيد في الحلاج"[19].

وقال أيضا:" مبنى طريق التصوف كلِّها التسليم والتصديق، كما أن مبنى الفقه على البحث والتحقيق، فالأصل عندنا حسن الظن حتى يتحقق العارف ، وتلتمس له المعاذير ، ومبنى العلم عند أهل الظاهر على عكسه حتى يتحقق العارف"[20].

ولنختم بكلام الحافظ شمس الدين الذهبي عندما ترجم للشيخ محي الدين بن العربي الحاتمي الطائي وقد ساق كلام الناس فيه ونقولا من كلامه:" ولابن عربي توسع في الكلام وذكاء وقوة حافظة، وتدقيق في التصوف، وتواليف جمة في العرفان، ولولا شطحات في كلامه وشعره لكان كلمة إجماع، ولعل ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته، فنرجو له الخير"[21].

**الهوامش**

1) قواعد التصوف، أبو العباس أحمد بن محمد زروق الفاسي: ص 6.

2) معراج التشوف إلى حقائق التصوف؛ أحمد بن عجيبة الحسني:ص4.

3) عدة المريد الصادق، أحمد زروق الفاسي: ص37.

4) مقدمة ابن خلدون: 611/1، قواعد التصوف: ص4، معراج التشوف: ص5.

5) الرسالة القشيرية في التصوف؛ أبو القاسم القشيري: ص30.

6) راجع بتوسع تعريف مصطلح التصوف عند: د/ محمد عقيل المهدلي في كتابه: مدخل إلى التصوف الإسلامي: من ص49 حتى ص80.

7) معراج التشوف إلى حقائق التصوف: ص5.

8) الاعتصام: ص 70.

9) الرسالة القشيرية: ص72.

10) المصدر نفسه.

11) نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير: ص51؛ وهو ينكر من يدعي سقوط التكاليف الشرعية على الولي:" وكذا أجمع المسلمون على أن الولاية لو تناهت لا يسقط معها تكاليف الشرع، وعن أهل الإباحة من الباطنية والإلحاد أذلهم الله تعالى وأخلى منهم الأرض أن الولي إذا بلغ الغاية في المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص سقط عنه الأمر والنهي، ولم يضره حينئذ الذنب ولا يدخل النار بارتكاب الكبيرة؛ وهذا كفر". شرح العقيدة الوسطى: ص345.

12) مقدمة ابن خلدون: 1/ 611.

13) مقدمة الشيخ حسنين مخلوف لرسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي: ص25، وما بعدها.

14) الاعتصام: ص74.

15) حقيقة التصوف، محمد حامد الناصر: ص3 وما بعدها.

16) الاعتصام: ص75.

17) عدة المريد الصادق: ص 229 وما بعدها.

18) تاريخ ابن خلدون:624/1.

19) شرح الكبرى: لوحة 21/ ب.

20) شرح الوسطى: ص99.

21) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: 278/14.

## المصادر والمراجع

ـ الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، تح: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة مصر، ط(2003/1424).

ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، تح: د/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، (2003/1424).

ـ تاريخ ابن خلدون؛ المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت لبنان، ط(2000/1421).

ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق؛ د/ زكي مبارك، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، ط1(2006/1427).

ـ الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، دار الدعوة، القاهرة مصر، ط1(1990/1410).

ـ الرسالة القشيرية في التصوف؛ أبو القاسم القشيري، تح: عبد الحليم محمود، دار الخير، دمشق سورية، ط1(2003/1423).

ـ رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، تح: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت لبنان، ط11(1964/1384).

ـ عدة المريد الصادق، أحمد زروق الفاسي، تح: د/ الصادق الغرياني، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1(2006/1427).

_ قواعد التصوف، أبو العباس أحمد بن محمد زروق الفاسي، طبعة حجرية بفاس المغرب.

ـ نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير

ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي، د/ محمد عقيل المهدلي، دار الحديث، القاهرة مصر، ط2(د ت).

_ معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن عجيبة الحسني، اعتنى به: محمد بن أحمد بن الهاشمي التلمساني، مطبعة الاعتدال، دمشق سورية، ط1(1937/1355).